النظرة الأخيرة

منذ أن رأيته في رؤياي بوجهه المشرق فاتحًا ذراعيه لأحتضنه، وأنا على هذا الحال أتنقل ما بين صناديق القمامة المنتشرة في شوارع المدينة الواسعة لعلي أعثر عليه.

فقبل فترة ليست بقصيرة لجأت لي زوجتي تستشيرني في أمر يقلقها ويحزنها وتحدثت دموعها عن رغبتها في احتضان وتربية طفل صغير.

لم أُوَافِقْها على فكرتها في البداية، ثم سرعان ما قهرتني دموعها وأسرتني توسلاتها؛ فتملكتني الرغبة في احتضان طفل صغير، وربما لا شيء فريد يمكن أن يتحقق دون ألم وتعب وجهد ومشقة ومذلة أحيانًا.

أكاد أن أبكي وأصرخ في صمت، وأتألم عندما ألمح نظرات الحزن في عينيها وشغفها الشديد.

أخذت أبحث عنه هنا وهناك في دور الأيتام.. الجمعيات الخيرية.. ولكن ضاعت كل محاولاتي سدًى وسط تعقيدات الروتين.

كاد أن يتملكني اليأس، وأحقد على كل من حولي، وكدت أختطف طفلًا، ولكن سرعان ما كنت أعود بعدما يراودني الأمل.

عدت لكي ألقيَ النظرة الأخيرة على هذا الصندوق، لعل أحدهم أو إحداهن تحجر قلبه ويحمله ويلقيه داخل الصندوق، أو يضعه على عتبة دار أو مسجد أو كنيسة.

سرت ناحية الصندوق أحمل معي، وهم من السعادة والأمل مع ما راودني من إحساس خفيف بالحيرة والقلق ليقيني بأنني لربما أجده هذه المرة.

كنت أضطرب وأنا أقترب من الصندوق، خشيت أن أعجز عن العثور عليه لأهديه لزوجتي.

جريت ناحية الصوت.

ناحية الصندوق.

فزعت من فوضى صرخات الطفل من تحت لفافات القمامة السوداء.

أخذت أرفعها بيدي العاريتين من فوقه لا أصدق نفسي، وددت لو قرصني أحدهم وقد لاح بريق الأمل في عيني أمل ما بعد اليأس.

منذ زمن بعيد وأنا على هذا الحال مستمر في محاولاتي اليائسة، لربما كانت هذه المرة ثمرة تعبي ومشقتي، وعذابات المرات السابقة، فلربما اعتبرني المَارُّون من حولي أنه قد مسني شيء من خبل أو اعتبروني ممن يقتاتون فضلات القمامة.

لم يكن مجرد حلم مر بمخيلتي أو فكرة طرأت في ذهني فجأة.

في لحظة ظلام رأيت النور ينبعث من خلف لفافات القمامة السوداء، يتلألأ من وجهه المشرق أنار ظلامي.

ولكن ماذا لو شاهدوا انفعالاتي واحمرار وجهي، وارتباك يداي وهي تحمله؟ وماذا لو صرخ الطفل؟

حينها... لم يطل وقوفي عند الصندوق كثيرًا حملته بين يداي وأسرعت الخطى ناحية البيت.

صعقتني اللا مبالاة التي قابلتني بها زوجتي، ولم أرَ الشغف في عينيها، حاولت وحاولت أن أعطيها الطفل لترضعه ليكفَّ عن الصراخ، بكت ثم بكت وحاولت أن تخبرني أن ما بين يدي مجرد دمية وليست طفلًا!

تملكني الخوف ونظرت إليها وجدتني لا أعرفها، فكلماتها هبطت عليَّ تصعقني، وتقضي على ما بقي فيَّ من آمال غير مصدق ما أسمع وأرى.

أخذت تضرب بكلتا يديها بعضها البعض، وهي تبكي وتردد (لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم)!

حاولت أن تقترب مني، تراجعت إلى الوراء وانزويت بعيدًا أحتضن الطفل وأُرْضعه من زجاجة الحليب.. أبى الطفل أن يرضع أو يتحرك وأخذ ينظر إليَّ بناظريه وثبتهما ناحيتي.

أحسست ساعتها.. ساعتها فقط أن كل من حولي يطمع في هذا الطفل.. كل يريد أن يختطفه من بين أحضاني.

رأيت الطمع في عيونهم والجشع في إلحاحهم وإنكارهم.. أبيت أن أستسلم لهم وأخذت أهرول هنا وهناك أهيم على وجهي.